

الفصل السادس

بَيْنَ مِحْنَةِ الْإِبْعَادِ .. وَفِتْنَةِ الثَّقَنِينَ ..

١ - محنة الإبعاد :

عاشت دولة الاسلام .. أكثر من ألف عام .. تقييم حكم الله كله بغير تفرقة بين شريعة وعقيدة ، وبغير تجزئة لأحكام الشريعة .. وكانت بذلك سابقة لزمانها .. في وجود دستور مكتوب لها .. ثم في سمو هذا الدستور ، وشمول أحكامه ..

ولم تكن ندادنيها دولة .. حتى أعرق الأمم « ديموقراطيا » وهي انجلترا فانها .. لم تعرف الدستور المكتوب الا في سنة ١٢١٥ م .. ذي بعد الدولة الاسلامية بأكثر من خمسة قرون .. ولم تعرفه الا في صورة العهد الأعظم .. وهو وثيقة حقوق لم تتضمن كل ما ينبغي أن يتضمنه الدستور .. وأقدم دستور في العالم بينه وبين الدستور الاسلامي أكثر من ألف سنة لأن الدساتير لم تظهر الا في القرن الثامن عشر ، وكان الدستور الاسلامي في القرن السابع الميلادي .. وحتى حين ظهرت الدساتير بدأت قاصرة على الجانب السياسي .. وحين تقدمت بعض الشيء شملت بعض المبادئ الاقتصادية ثم شملت بعض المبادئ الاجتماعية .

ودستور الاسلام شمل هذا كله .. من قبلهم بألف سنة ، وشمل الى جانبه .. جوانب أخرى .. لا تقل أهمية عنها بل تزيد .. شمل .. جانب العقيدة وهو الأصل والأساس ، وشمل جانب الأخلاق .. وهي كذلك أساس أو بعد الأساس . وشمل جانب الشعائر والتعبد .. ولها ما لها من تأثير الحفاظ على العقيدة والأخلاق .. ومدهما بالرأى والنماء ..

كما أن لها ما لها من تأثير على الجوانب الأخرى للمعاملات : سياسية واقتصادية واجتماعية ..

* * *

وظلت دولة الاسلام بشريعتها وبأمتها .. شامخة على الزمان تمثل « الدولة العالمية » بامتداد رقعتها على محيط قارات العالم كله ، وتمثل الى جانب عالميتها « المثل الأعلى » للشريعة المحكمة وللأمة التي صارت بحق خير أمة أخرجت للناس .. وحار فيها أعداؤها .. حارت فيها اليهودية الحاقدة التي حملت لها الحقد منذ مولدها في المدينة .. بما أدى اليه هذا المولد .. من قضاء عليها في قلب المدينة واجلاء لها .

وحارت فيها الصليبية المتعصبة .. التي رغم اعترافنا بدينها .. « المسيحية » وبنبيها « المسيح » .. لم تعترف بديننا ولا بنبينا ، واعتبرتنا بلغتها غاصبة لسلطانها مزاحمة له في الأرض ! وتحركت هاتان .. تحت علم الصليب .. تبغى القضاء على دولة الاسلام التي عاشت أكثر مما عاشته أعتى دولة .. والتي اتسعت ما لم تتسع له دولة من قبل ولا من بعد .

تحركت الصليبية المتعصبة تدفعها وتغذيها اليهودية الحاقدة⁽¹⁾ .. في حروب للمسلمين امتدت مئات السنين .. فهل استطاعت القضاء على دولة الاسلام .. أو القضاء على المسلمين ؟

لم تستطع هذا .. ولا ذلك .. برغم أن الدولة الاسلامية شأن أى كائن حي - كان قد دب فيها من الأمراض ما يغري أعداءها بها .. لكنها كانت تنتفض في كل مرة للافاة الصليبيين وحربهم .. حتى انتهى الأمر بها الى هزيمتهم شر هزيمة .. في حطين وفي غير حطين ! .. وكان لا بد للقوى المعادية للاسلام .. متمثلة في اليهودية الحاقدة ، والصليبية المتعصبة أن تبحث لها .. عن طريق آخر .. واهتدت .. ويا للأسف ، بل يا للحسرة .. لما اهتدت اليه . اهتدت لهدم البيت من داخله .. لا من خارجه .. وبيد أصحابه .. لا بيد أعدائه ! .. ونأخذ لذلك نموذجين .. من تركيا .. ومن مصر ..

(1) اعترف الكاتب الأمريكى « وليام غاي كار » بأن اليهود كانوا وراء الحروب الصليبية بهدف اضعاف العالمين المسيحي والاسلامى .

أولا - في تركيا : حملت تركيا بصدق علم الخلافة الاسلامية طوال خمسة قرون واستطاعت أن تعوض المسلمين عن الأندلس بما فتحتة من بلاد أوروبا .. ودخل نور الاسلام أرض فرنسا والنمسا ورومانيا الى جوار شبه جزيرة البلقان ..

لكن يبدو أن فكر اخواننا الأتراك لم يكن في مستوى عضلاتهم فبدأ الغزو الفكرى لمركز الخلافة الاسلامية * وأنتج عدولا عن شريعة الله الى القوانين الوضعية بعد أن كان الحكم لشريعة الله طوال القرون الخمسة الماضية * فأصدرت الدولة العثمانية قانون العقوبات فى سنة ١٨٤٠ وقانون التجارة فى سنة ١٨٥٠ مأخوذين عن القوانين الغربية .. وبقيت دائرة الشريعة تحكم ما سوى هذين النطاقين ..

وفى مجال القضاء حدث ازدواج غريب فى سنة ١٨٦٠ اذ عهد الى « المحاكم النظامية » تطبيق القوانين المأخوذة عن أصل فرنسى وبقي سلطان « المحاكم الشرعية » ينقلص حتى اقتصر على دائرة الأحوال الشخصية ..

وكان ثمة غزو فكرى .. قامت عليه جماعة الاتحاد والترقى ثم جماعة تركيا الفتاة .. اللتان حملتا « جرثومة » فصل الدين عن الدولة ..

* * *

وكانت عملية « صناعة الزعيم » .. تتم فى ذلك الحين .. دخلت جيوش الحلفاء أرض تركيا .. وانهزم أمامها الجيش التركى * وفجأة تغيرت القيادة ، وجاء مصطفى كمال أتاتورك . وفجأة تحولت الهزيمة الى نصر .. نصر هز قلب الأمة الاسلامية حتى لقد وقع شوقى فى خداع التمثيلية .. فراح يشبه كمال أتاتورك بخالد بن الوليد . وشتان بين الصنفين بعيد ! ..

وقال فى قصيدة مطلعها :

الله أكبر كم فى النصر من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

* * *

واذا بمصطفى كمال أتاتورك .. يفجأ الأمة ويفجعها فى الخلافة الاسلامية ، ويحملها مسئولية الهزيمة . وينفطر قلب الأمة الاسلامية حزنا وأسى بعد أن كان قد اهتز طربا وفرحا ..

ويشبهه شوقي الأمر .. بما تم لعروس في ليلة زفافها .. ويشدو
بأبيات لا تزال حية في القلوب :

عادت أغاني العرس رجع نواح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه
الهند والهة ومصر حزينه
والشام تسأل والعراق وفارس
يا للرجال لصره موعودة
نزعوا عن الأعناق خير قلادة
شرف أتى طول الليالي دونه

ونعيت بين معالم الأفراح
ودفنت عند تبليج الاصبح
تبكى عليك بمدمع سحاح
أمحا من الأرض الخلافة ماح
قتلت بغير جريرة وجناح
ونصوا عن الأعطاف خير وشاح
قد طاح بين عشية وصباح

ثم يصور بكاء الامامة الصغرى على الامامة الكبرى .. بكاء على
الخلافة فيقول :

بكت الصلاد وتلك فتنة عابث
أفتى خزعبله وقال ضلالة

بالشرع عربيد القضاء وقاح
وأتى بكفر في البلاد بواح

ويحسن فهم العقلية العسكرية حين تحكم فيقول :

ان الذين سرى عليهم فقهه
ان حدثوا نطقوا بخرس كتائب
خلقوا لفقه كتيبة وسلاح
أو خوطبوا سمعوا بصم رماح

وفي قصيدة أخرى يربط بين فجيحة ضياع الخلافة وفجيحة ضياع
الأندلس فيقول :

يا أخت أندلس عليك سلام
طوى الهلال عن السماء فليتها
هوت الخلافة عنك والاسلام
خفت الأذان فما عليك موحد
طويت وعم العالمين ظلام
يسعى ولا الجمع الحسان تقام

ثانيا - في مصر : بدأ الغزو الفكري والخلقى لها .. مع مجيء
الحملة الفرنسية والذين أرخوا بصدق لهذه الحملة يعترفون .. أن
الاحتلال العسكري لم يكن هدفها الوحيد ان لم يتحقق كهدف تماما ..
ينضح لنا ذلك مما حدث في احتلال سوريا ولبنان وحمل القائد
العسكري « غورو » مع بواخره الحاملة للسلاح والذخيرة .. باخرة
تحمل سلاحا جديدا ..

حمل باخرة محملة « بالمومسات » .. فسأل سائل القائد العسكري :
ولم قدوم هؤلاء وأنت قادم لاحتلال عسكري ؟ فأجاب القائد : ان
القوة وأثرها قد يزول .. أما أثر هؤلاء فلا يزول .

وصدق .. فلا تزال القاهرة ، ودمشق ، وبيروت تعاني أثر غزو المومسات (٢) .

وأعقب الحملة الفرنسية .. حكم محمد علي .. ولا يزال ذلك الداهية تحار في شأنه كثير من الأفهام ..

لكن من الأحداث الغربية في عهده والخطيرة :

١ — انه قضى على الحركة الوهابية . رغم أنها في أصلها حركة إسلامية أصيلة .

٢ — انه حارب دولة الخلافة .. وأضعفها .. واقتربت جيوشه من عاصمتها . ولم يكن هذا ولا ذاك .. لوجه الله ! ..

ومن بعد محمد علي من الأحداث البارزة كان الاحتلال البريطاني وسبقه بسنين قليلة .. ولحقه بسنة واحدة حادثان هامين :

أما الحادث الأول فكان قبله بثمان سنين في سنة ١٨٧٥ حين أنشئت المحاكم المختلطة .. ليتداعى لها أو أمامها الأجانب المقيمون .. بعد أن ثقلت مصر بالديون وضعفت أمام النفوذ الأجنبي ! ..

أما الحادث الثانى .. فكان في سنة ١٨٨٣ بصدور مجموعات القوانين الأهلية وانشاء المحاكم الأهلية .. ليتداعى أمامها المصريون في غير مسائل الأحوال الشخصية .

وهكذا تقلصت في مصر .. بعد تركيا سلطان الشريعة الإسلامية ليقبع في دائرة الأحوال الشخصية .. الزواج والطلاق والميراث .. أما ما عدا ذلك فقد ترك لحكم غير حكم الله .. تسرح فيه الشياطين وتمرح .. ما شاء لها ابليس أن تسرح وتمرح .

* * *

وظلت المحاكم الشرعية تباشر سلطانها الضيق في دائرة الأحوال الشخصية حتى تم الغاء المحاكم الشرعية في سنة ١٩٥٥ في مسرحية رائعة الاخراج لكنها .. لا تخفى في هدفها عن ذوى الألباب (٣) .

(٢) من كتابنا « عندما يحكم الطغيان » .

(٣) اتهم قاضيان شرعيان بأهر يمس الأخلاق .. فالغيت المحاكم الشرعية .. ولسنا نتعرض لصحة الاتهام أو كذبه .. لكننا نقول .. لقد تعرض الرئيس نيكسون لما يمس الخلق .. فهل الغيت رئاسته الجمهورية في أمريكا ؟

وأعقب ذلك صدور قانون تطوير الأزهر في سنة ١٩٦١ ثم أعقب ذلك صدور ميثاق العمل الوطني في سنة ١٩٦٢ خاليا من النص على الشريعة الإسلامية وعلى الإسلام .. وهكذا .. بدت مصر — لأول مرة في تاريخها من الناحية الرسمية — دولة علمانية .
 وأعقب ذلك في سنة ١٩٦٥ ضرب الحركة الدينية في مصر بقتل العشرات أو المئات في التعذيب أو على المشانق أو في السجون ..
 تنفيذاً لمخطط سابق أشار إليه حكم شجاع جرىء لمحكمة مصرية^(٤) .

* * *

٢ — فتنة التقنين

قد يكون غريباً على الناس أن نقول لهم أن تقنين الشريعة الإسلامية فتنة .. تماماً كقولنا منذ قرن أن التعليم المدني — بالصورة التي هو عليها الآن — فتنة ، تماماً كقولنا منذ نصف قرن أو أكثر .. أن خروج المرأة .. من بيتها وهجرها له فتنة ..
 وقد صار الواقع يؤكد أن التعليم المدني بما أدى إليه من إبعاد التعليم الديني ، ثم بما أدى إليه من علماء يجهلون دينهم ومن ثم يعادونه .. أنه بهذه المثابة كان فتنة .
 وصار الواقع يؤكد كذلك .. أن خروج المرأة من بيتها — لغير ضرورة — كان فتنة .. فقد خلت البيوت من رباتها .. وفقد الجيل الجديد المربيات الصالحات .. وترك للخادئات والخادئات !
 وعششت النعاسة على بيوت الموظفين والموظفات .. يقضون نصف وقتهم في أعمالهم والنصف الآخر يتناحرون على مصروف البيت ، أو على علاقة الزوج بفلانة أو علاقة الزوجة بفلان ! ..
 ونحن نقول اليوم أن تقنين الشريعة فتنة وسوف تثبت الأيام صدق ما نقول .. وحتى ننصح لقومنا .. نقدم هذه الأسباب :
 أولاً : أن اللجوء إلى التقنين .. بتشكيل اللجان المختلفة التي تقوم به .. سوف يجعل أمد الحكم بالشريعة بعيداً .. حتى تنتهي اللجان .. ونحن الذين خبرنا عمل اللجان نعرف .. كيف تعمل .. ومتى تنتهي وغيرنا ممن خبر يعرف ذلك ..

(٤) راجع كتابنا « في الزنزانة » — من صفحة ١٣٢ الى صفحة ١٣٥ وهو جزء من الوثيقة الخاصة بمكافحة جماعة الإخوان المسلمين .

والعالمون ببواطن الأمور الادارية يقولون : اذا أردت أن تقبر موضوعا .. فاعهد به الى لجنة .. وبعد اللجنة لجنة أعلى ! .. وهكذا . حتى يموت .. أو تموت أطرافه ! ..

وثانيا : لأن أكثر هذه اللجان .. تعمل .. في الخيال .. فهي تتصور المشاكل ثم تتصور لها الحلول .. وليس كذلك يكون وضع النصوص السليمة البعيدة عن العوج .

وثالثا : لأن التقنين سيؤدى الى حجب المجتهدين — ان وجدوا — عن المصادر الأصلية .. الكتاب والسنة .. ويقف الاجتهاد عند فهم النصوص القانونية .. لأنها المطبقة فعلا وهكذا ينفصل الفرع عن أصله ..

وبقاء المصادر الأصلية من نصوص الكتاب والسنة .. أبقي للاجتهاد وأخصب له !

ورابعا : لأنه بصدور هذه القوانين سيفرح الناس بحكم الشريعة .. مع أن حكم الشريعة قد يظل معطلا في أهم الدوائر وأكدها .. وهى : دائرة العقيدة ، ودائرة التعبد ، ودائرة الأخلاق .

وهكذا قد تضىف الشريعة على حكم غير شرعى يقيم بعض الشريعة ويترك بعضها الآخر .. يقيم الحدود .. ويترك الأخلاق .. أو يحرم الربا ويترك الخلوات المحرمة .. وبؤر الفساد المنتشرة .. التى تهدم أكثر مما تهدم الجيوش .. أو أجهزة الاعلام القائمة على نشر الرذيلة وإشاعة الفاحشة والاعراء بالجريمة ! .. وهكذا نقول ان التقنين فتنة ..

* * *

ويثور التساؤل سريعا .. وكيف للقضاة أن يحكموا .. وأحكام الشريعة فى بطون كتب .. لا يستطيع قراءتها الا القليل منهم ، وان استطاعوا قراءتها فلن يستطيع فهمها الا القليل .. وان فهمها فقد لا يستطيع استنباط الحكم منها ..

وهذه ثقة .. لا نرضاها لقضائنا .. الذى استطاع فى مجال الأحوال الشخصية .. أن يقف على قدميه بعد الغاء المحاكم الشرعية ، وأن يفوت على المجرمين قصدهم من .. هذا الالغاء ..

لكننا مع ذلك نعترف .. بأن دراسات كليات الحقوق .. لا تؤهل للحكم بشريعة الله .. وهو ما نوهنا اليه من قبل ..

ولن يستقيم الأمر حتى يصير تدريس الشريعة الإسلامية هو الأصل
الذي لا يستغرق منه إلا القليل • ولنكن واقعيين • فنعترف أن ازدواجية
التعليم لا معنى لها في بلد دينه الرسمي هو الإسلام • وشريعته مصدر
الأحكام •

لا بد •• أن يتوحد التعليم •• ليكون كله دينيا • ليس معنى ذلك
إلغاء المواد الأخرى •• إنما معناه التنسيق •• ليكون التأهيل لفهم
الشريعة الغراء •• ودراستها • ولنسارع بإعادة « الجليل » الشاردة
من أسجارنا •• السائحة في بلاد الله •• والمتخصصة في دراسة الشريعة
الإسلامية في أمريكا •• وفي أوروبا •• وغيرها •• فبلدنا أولى ••
أولى بهم •• وبجهودهم •

ولنكرمهم •• أكثر مما كرمتهم تلك الدول ! فإنهم منابع نور ••
وينابيع فضل ••

وانهم البقية الباقية لنا •• من ميراث محمد عليه الصلاة والسلام
بعد كتاب الله وسنة رسوله (٥) •

ولقد أفضى إلى ربهم أساطين (٦) •• كنا بحاجة إلى علمهم وفضلهم
وبقى القليل •• الذين نرجو أن تحرص الدولة عليهم حرصها على أئمن
ما عندها من كنوز •

* * *

(٥) في الحديث : العلماء ورثة الأنبياء •

(٦) نذكر منهم •• الشهيد عبد القادر عودة ، والشهيد سيد قطب •
ونذكر منهم •• أستاذنا المرحوم عبد الوهاب خلاف وأستاذنا المرحوم محمد
أبو زهرة وأستاذنا المرحوم محمد زكريا البرديسي •